

الانقلاب الجمهورى فى اسبانيا

٢ - حرب الريف الى قيام الجمهورية

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت حوادث مراكش كابوس السياسة الاسبانية منذ نهاية الحرب. وكان لها أكبر أثر فى تطور الحوادث التى انتهت بظفر الديموقراطية وقيام الجمهورية، وما زلنا نذكر تلك الحرب التحريرية العجيبة التى شهرها عبد الكريم زعيم الريف على اسبانيا مدى أعوام، ودحر خلالها الجيوش الاسبانية مراراً، وكاد يظفر بسحق سيادة اسبانيا فى شمال مراكش لولا أن تألبت عليه قوى الاستعمار أخيراً واتحدت فرنسا مع اسبانيا على محاربته وسحقه، فكان ما أراد الاستعمار.

وكانت اسبانيا تعاني فى بلاد الريف (شمال مراكش) منذ احتلالها متاعب جمّة من جراء ثورة القبائل وتضطر دائماً إلى الاحتفاظ بجيش ضخم، ولكن أول نكبة حقيقية نزلت بالجيش الاسباني فى بلاد الريف، وقعت فى أنوال سنة ١٩٢١، فيها هاجم عبد الكريم زعيم الريف مراكز القوات الاسبانية فى تلك المنطقة، وكانت تبلغ زهاء تسع عشرة ألفاً، فزحوا واستولى على مراكزها وذخائرها، وقتل منها نحو ستة عشر ألفاً، وفر الباقون فى مختلف الانحاء، وانتحر قائدهما الجنرال سلفستر. وكان محمد بن عبد الكريم الخطايب من أبناء بنى أرغيل، رباه أبوه تربية حسنة، ودرس اللغة الاسبانية، والتحق بوظيفة فى الادارة الاسبانية بمليلة؛ وفى سنة ١٩١٩ وقعت بينه وبين الجنرال سلفستر مشادة حادة وأهانته القائد، فقرر من مليلة وهو يعتمر الانتقام ولحق به أخوه (محمد أيضاً) وهو البنا اليأس.

لا. لا. اعمل لدينك كأنك تعيش أمداً؛ وتباً لهؤلاء الذين يخلعون قلوبنا بالموت فنكون طعمة لمن يحبرن الحياة ولنبدأ دعوة جديدة قوامها العمل للحياة ولا بأس بالموت اذا الموت نزل.

أحمد أمين

قول القبائل، مات الميت فليحى الحى، وتفاخروا بالجلد كما تفاخر بالجزع، وتواسوا بالنبات كما تواسى بالهلع

ثم كان من الادب ما كان من رجال الدين: حزنوا للشيب اذ فقدوا الشباب، أكثر مما فرحوا بالشباب يوم أن كان، ووقفوا فى مراتبهم موقف الناديات فى التآتم، يعجبون كيف كان الموت وكيف نزل، ويلهبون عواطف الناس، ويشيرون أشجانهم، ويعدون أقدمهم على القول وأقربهم الى الاجادة من عرف كيف يستخرج الدمع ويستنزف الشؤن، فكان من هذا وذاك اقصاد عواطف الناس نحو الموت ودفعهم الى التغالى فى المشاعر

ثم أخطأ الناس فى القياس، فظنوا أن النفس تألم فى الحياة الاخرى بما تألم به فى الحياة الدنيا. ظنوا أن القبر يوحش بعزله كما يستوحش الحى من عزله، وأن القبر يرهب بضيقه وظلمته، كما يتبرم الحى بضيق المكان وظلمته، وأن الميت يألم من البرد القارس كما تألم، ويضجر من الحر القاسى كما تضجر، وغاب عنهم ادراك الفرق بين الحياتين، والاختلاف الواسع بين الطبيعتين اذا افترقت أجزاء جسمى لم أبلى

حلول الرزايا فى مصيف ولا مشى

ان تفضيع الموت يدعو الى نوع من الحياة لا هو حياة ولا هو موت، ولعل كثيراً من رذائل الشرق سببه ما اعتاده قادتهم من تهويل الموت وتفضيع شأنه، والافا الذى يجعلنا نرضى بالعيش الذليل بين أحضان آبائنا وأمهاتنا ولا نتطلب العيش السعيد بالحجرة والارتمال؟ وما الذى يدعونا الى الفرار من المغامرة فى شؤون الحياة، والركون الى عيش الدعة والاطمئنان، الى كثير من امثال ذلك؟ لاشىء الا التغالى فى الخوف من الموت، للتغالى فى تهويل الموت

لقد جل خطب الحياة ان كان كلما مات قريب أو صديق ذابت النفس حشرات، وأظلمت فى وجهنا الدنيا، وتطرق

انه يستطيع اتميز هذه الفرصة لاقامة الحكم المطلق واستئثار القصر بجميع السلطات ومن ورائه الجيش ، ولكن زعماء الجيش اسروا على ان يتولى زعيم الثورة الجنرال دي ريفيرا الحكم . وفي ١٥ - سبتمبر دخل دي ريفيرا مدريد ، واحتل دور الحكومة ، وسيطرت العسكرية في الحال على كل شيء . وانشئت الادارة العسكرية وعلى رأسها دي ريفيرا ، وأعلنت ان البلاد في حالة حرب ، واتخذت اجراءات شديدة لسحق كل مقاومة ، وعطلت البرلمان ، ونزعت الرقابة على الصحف ، وذهب وفد من زعماء الساسة الاحرار والمحافظين الى الملك يشاهده صون الحياة النيابية فرد ، بخشونة . وقد وصف هذا الطغيان العسكري الجديد يومئذ بأنه « نظام يقوم على القوة باكثر مما يقوم على السلطة ، ذو نزعة مركزية قوية ، يعتمد على مؤازرة الجيش ، ويميل الى عناصر الاحبار والكهنة ، ويصادق كبار الملاك ، ويعطف على الاشتراكية في خصومتها للحركة البقائية » وتولى الجنرال دي ريفيرا جميع السلطات والوزارات على مثل السينيور موسوليني وقضى على جميع الحريات الدستورية التي تمتعت بها اسبانيا اكثر من قرن ، واستقبلت اسبانيا عهدا جديدا من الحكم الحديدي .

وكانت مسألة مراکش أهم وأخطر المسائل التي عنت بها الادارة العسكرية ؛ وكان مركز اسبانيا يزداد حرجا في الريف ، وتشرف مواردھا تباعا ، ويتناقص جندھا امام هجمات عبدالكريم فرأى دي ريفيرا أن يلجأ الى الصراحة والجرأة في حل المسألة المراكشية ، وقرر أن تنسحب القوات الاسبانية من المناطق الداخلية وأن تمتنع فيما يلي الشاطئ ؛ وهكذا استطاع عبدالكريم أن يسيطر على اعظم الريف كله ماعدا تيطوان ومليلة ، واجتمعت حوله القبائل ، واضحت قوة يخشى بأسها في شمال مراکش ؛ ولم يبق استقلال الريف أمنية مستحيلة ، ولم يبق على تخفيفها سوى مرحلة يسيرة ، ولكن الحوادث تطورت بشكل لم يكن يتوقعه عبدالكريم ولم تكن تتوقعه اسبانيا ذاتها . ذلك أن الفرنسيين تقدموا من حدود الريف الجنوبية ، وخشى عبدالكريم عواقب هذا التقدم ، فرأى أن يحول شطرا من اهتمامه الى هذه الناحية . وفي سنة ١٩٢٥ نظم عبدالكريم هجوما شديدا على مراكز تازة ووجدة داخل الحماية الفرنسية ، وأخضع في بعض القبائل المؤالية للفرنسيين وهدد مدينة فاس ، فارتفعت فرنسا لذلك المماجأة ، وكانت لاثرائل تلتقي في

مهندس درس في اسبانيا وكانت القبائل يومئذ تتحفز للانتفاض ، وكانت قد تلتقت أيام الحرب كثيرا من الأسلحة والذخائر التي هربت بواسطة الألمان ، فكان ذلك أكبر عون لها على مقاومة القوات الاسبانية وازعاجها من وقت لآخر . فلما فر عبدالكريم من مليلة دعا الى الثورة التف حولته عدة مئات من الرجال الأشداء ، واستطاع بهاء القوة الضئيلة أن يدبر ذلك المجرم الجريء على المراكن الاسبانية في احوال وأن يترن بها تلك الكارثة الفادحة (يولييه سنة ١٩٢١) ، واستولى عبدالكريم على كميات هائلة من الأسلحة والذخائر مما كتته من المثابرة في الحرب أعواما . وكان للسكة وقع عميق في اسبانيا ، فاضطرم الرأي العام سخطا واضطرت وزارة سالازار الى الاستقالة ، وألفت وزارة محافظه برئاسة السينيور مورال . ولكن الرأي العام ظل على اضطرامه ، وارتفعت الصيحة بطلب التحقيق في الكارثة ، وحلت الدوائر العسكرية على البرلمان باعتباره مشغولا عما وقع من الاضطراب والخلل في الخطط والتدابير العسكرية ، وأرسل الى مراکش جيش ضخم يبلغ مائة واربعين الفا لتدارك الموقف وانقاذ القوات المزعجة ، وارتدت الوزارة لجنة للتحقيق ، ولكنها اضطرت الى الاستقالة قبل ان تقوم اللجنة بمهمتها ، فقامت وزارة محافظة أخرى برئاسة السينيور سانكينز جويرا ، ثم تلتها وزارة حرة برئاسة جراسياريو ؛ وفيها تولى وزارة الحربية موظف ملهي هو الكالا زامورا الذي يتولى اليوم رئاسة الجمهورية الاسبانية ، ولكنه استقال غير بعيد وخلفه بجندى هو الجنرال ايزبورو ، وكان من أنصار العسكرية الرجعية وحلفائها ، ومن خصوم النظام الدستوري ، فأخذ يعمل بكل ماوسع لتوطيد النفوذ العسكري في شؤون الحكم ، وكان هذا النفوذ يشتد يوما فيوما ، تغذيه حوادث مراکش ، وما أثارته من الاضطراب .

وفي خريف سنة ١٩٢٣ تمخض الضيق بين العسكرية والديموقراطية عن نتيجة حاسمة . وذلك أن الدون مجويد بريدي ريفيرا حاكم قطالونية العسكري أعلن الثورة ضد الحكومة وهدد اعضاها ، وايدته السلطات العسكرية في مدريد وسرقة ، وأذاع في البلاد منشورا نادى فيه ببحرير البلاد من الساسة المحترفين الذين يحملون تبعه ما أصاب البلاد من محن ، وأعلن قيام إمارة عسكرية في مدريد ، تعمل لانقاذ البلاد من شراتها وحل المسألة المراكشية (اوائل سبتمبر سنة ١٩٣٣) . وكان ألفونسو الثالث عشر يعتقد

مراكش متاعب جمة ؛ واعتزم الجنرال ليون حاكم مراكش العام أن يسحق تلك القوة الخطرة ؛ وفاوضت فرنسا اسبانيا في تنظيم العمل المشترك في مراكش ورحب دي ريفيرا بهذه الفكرة ، ونظمت الدولتان خطة مشتركة لتطويق عبد الكريم وسحق قواته وبعثت فرنسا اثنين من أعظم قوادها وهما بتان ونولان الى مراكش على رأس جيش قوامه نحو مائتي الف مقاتل مجهز بأحدث الوسائل والعدد ، وأنزلت اسبانيا جيشا كبيرا في الحسيمة ، ونظم الجيشان باديء بدء خطة الاتصال . وهكذا طوق الزعيم الربيعي في مراكشه ولم يك ثمة شك في مصير تلك الحرب التي تديرها دولتان أوربيتان على زعيم محلي يعتمد على آلاف قليلة من البدو ويستمد موارده وذخائره من أيدي عدوه ، وأدرك عبد الكريم من شدة المعارك الاولى أن المضي في القتال عبث ، وأن الدائرة دائرة عليه بلا ريب ، ففاوض الفرنسيين في التسليم بلا قيد ولا شرط ، وفي ٣٠ مايو سنة ١٩٢٦ سلم نفسه الى الجنرال بويشيت ، ودارت بشأنه مفاوضة بين الحكومتين الفرنسية والاسبانية انتهت بتقرير فقيه مع اسرته الى جزيرة ريبيون من أعمال مدغشقر ؛ وانهارت تلك الحركة التحريرية البديعة التي نظمها هذا الزعيم البربري الباسل ، وعاد الاستعمار الاسباني فوطد سيادته في الريف ، ووطد الاستعمار الفرنسي سيادته في شمالي مراكش ؛ وخسرت الدولتان في تلك الحرب آلاف الرجال وملايين الاموال ، ولكن الاستعمار لم يكن ليحجم عن بذل مثل هذه التضحيات الهائلة في سبيل القضاء على ثورة تحريرية تهدد مستقبله في تلك الانحاء .

وهكذا حلت المسألة المراكشية . وكان لها عاملا قويا في تأييد نفوذ الدكتاتورية العسكرية وهيبته . وفي عهد الدكتاتورية أيضاً تحسنت الأحوال الاقتصادية . ولكن وطأة هذا النظام المطلق لبثت تنقل كاهل الشعب الاسباني ؛ وكانت ظمأه الى الحريات الدستورية التي تمتع بها مدى قرن ، يشتد كلما اشتد ضغط الطغیان العسکری ؛ وكان هذا السخط يتفجر من آن لآخر في قطلونية وبعض الانحاء الاخرى عن ثورات محلية كان دي ريفيرا (أو المراكز دي استيلا كما لقب بعد) يقمعها بعتى الشدة والقسوة ؛ وكانت الدكتاتورية مع ذلك تقوم دائما على بركان مضطرم ، حتى أن

دي ريفيرا اضطر أن يضع اسبانيا تحت الاحكام العسكرية (سنة ١٩٢٦) . وفي أوائل سنة ١٩٢٧ حاول زعيم قطلونية المنفي الكولونيل ماشا أن يعبر الحدود الفرنسية مع جماعة كبيرة مسلحة من أنصاره ليسير إلى قطلونية ؛ ولكن قبض عليه وعلى كثير من أصحابه عند الحدود . ورأى دي ريفيرا أن يهدى السخط العام بتخفيف وطأة النظام ، وأن يعود الى ظاهر من الحكم الدستوري ، فأصدر في سبتمبر سنة ١٩٢٧ قانوناً بإنشاء جمعية للشورى . ولكن هذه الجمعية لم تكن لها أية سلطة حقيقية ، ولم تكن إلا ستاراً فقط تستر من ورائه الادارة العسكرية . وعلى ذلك فقد فصلت هذه المحاولة ، ولبثت المعارضة على شدتها واضطرابها . وكانت الجيش أيضاً قد بدأ يتقلب على دي ريفيرا ، أولاً لأنه لم يوافق على مسلكه في المسألة المراكشية حيث قرر الانسحاب أولاً عن المناطق التي كان يحتلها الجيش ، ثم تساهل بعد ذلك في الاتفاق مع فرنسا ، وثانياً لأنه كان يباليخ في الاستئثار بالأمر ولا يرى في الجيش سوى أداة لتحقيق سياسته ؛ وكان الفونسو الثالث عشر من جهة أخرى يشعر بوطأة هذا النظام الذي نزع العرش كل سلطانه . ومنذ سنة ١٩٢٨ أخذت بوادر السخط والاتفاض تبدو في الجيش ؛ وفي سنة ١٩٢٩ ، ثارت فرق المدفعية بزعامة السينور سانكيو جويرا الزعيم المحافظ الذي تولى رئاسة الوزارة فيما قبل ؛ وانتهز الفونسو الثالث عشر هذه الفرصة فأصدر أمراً بعزل بريمو دي ريفيرا وحل الادارة العسكرية ؛ ولم يجد دي ريفيرا سيلاً لل مقاومة فأذعن وغادر منصة الحكم بعد أن لبث ستة أعوام ينقل كاهل الشعب الاسباني بطغيانه وعسفه . وفي مستهل سنة ١٩٣٠ ، ألقت حكومة جديدة برئاسة الجنرال برنجير ، لتعمل على إعادة الحكم الدستوري ؛ وهنا تنفس الشعب الصعداء ، وتقدم زعماء الأحزاب المعارضة (المحافظون والاحرار والجمهوريون) بطلب اجراء الانتخابات العامة ، فعارضت الحكومة في اجرائها . واشتد السخط حينما رأى الشعب أن الحكومة الجديدة لم تأت إلا لتستمر في تأييد نظام الطغیان والحكم المطلق . وفي ديسمبر سنة ١٩٣٠ ، شبت ثورة جديدة ؛ ولكن الجنرال برنجير استطاع أن يسحقها في الحال . بيد أنه لم يلبث أن استقال ؛ وخلفه الجنرال آزناو على رأس حكومة شبه عسكرية أيضاً ؛ وهنا تقدم الكونت رومانو نيس زعيم الاحرار

مسألة خطيرة أخرى هي مسألة الكنيسة والدولة ، وقد انتهى البرلمان بالموافقة على فصل الكنيسة عن الدولة (١ أكتوبر سنة ١٩٣١) ولكن هذا القرار أحدث أزمة وزارية ، فاستقال السينيور الكالا زامورا ، وقامت وزارة جديدة برئاسة الدون مانويل أزانزا . وعانت اسبانيا خلال هذه الفترة كثيرا من المتاعب من جراء الثورات والمظاهرات المختلفة التي دبرتها احزاب اليسار المتطرفة - الشيوعيون والاشتراكيون - ومن الاعتصامات العامة التي نظمت في كثير من أنحاء البلاد ؛ وعانت الجمهورية الجديدة من جراء معارضة الكنيسة ودسائس الاحبار ونزول الملوكية ؛ ولكن الحكومة الجمهورية ابدت حزما وصرامة في قمع الفتن الشيوعية ، وسحق دسائس الاحبار ؛ وثار بين اسبانيا والفاتيكان خلاف كبير من جراء نزع املاك الكنيسة ومطاردة الاحبار . واصدرت الحكومة قانونا خاصا لحماية الجمهورية (٢٠ أكتوبر) - وفي نوفمبر صدر قانون خاص باعتبار المونسو الثالث عشر خارجا على القانون وبوجوب مثوله ومحاكمته ؛ وفي العشر من ديسمبر اجريت الانتخابات لرئاسة الجمهورية ، فانتخب السينيور ال - لا زامورا اول رئيس للجمهورية الاسبانية الثانية . وقد اضطرت اسبانيا في الفترة الاخيرة بعدة ثورات وفتن محلية وديرت عدة مؤامرات ملكية ، ولكنها أخفقت جميعا ؛ وفي العهد الاخير رأت حكومة الجمهورية أن تستعين على قمع الفتن بالتشريع الصارم فاصدرت قانونا باعادة عقوبة الاعدام ، وكان من جراء ذلك جدا حاد في البرلمان بين الحكومة والمعارضة بزعماء السينيور مورا وكادت تحدث ، أزمة وزارية جديدة ، ولكن السينيور ليرر رئيس الوزارة الحالية استطاع ان يثافي الازمة ، وصدر التشريع الجديد ، وما زالت الجمهورية الفتية سائرة في طريقها تغالب كيد خصومها من فل الملوكية والاحبار الذين قضت على سلطانهم وامتيازاتهم . ولا ريب أن في ظفر الديمقراطية باسبانيا إبان تلك الازمة العvisية التي تعانيها في بلاد أخرى مثل ألمانيا والنمسا ، دليلا على أن الديمقراطية ما زالت تتمتع بحماية كبيرة وانها اما تجوز أزمة وتية لا تلبث أن تعود بعدها الى سابق طوطها وازدهارها

محمد عبد الله عنان

الحامي

الذي تولى رئاسة الوزارة مرارا من قبل ، الى الوزارة الجديدة ، بنصيحة رآها كفيلة بحل الأزمة وتهديمه الخطوط ، وهي أن تجري الانتخابات البلدية على الأقل مادام انها لا ترغب في إجراء الانتخابات العامة ؛ فنزلت الوزارة عند هذا النص ، وأجريت الانتخابات البلدية في جميع أسبانيا في العاشر من ابريل سنة ١٩٣١ . وكان يوما حاسما في تاريخ أسبانيا الحديث ؛ فيه خرج الجمهوريون في جميع الدوائر بأغلبية ساحقة ، وغمر التيار الجمهوري كل شيء . في البلاد ، فاستقالت الوزارة في الحال . ورأى الفونسو الثالث عشر أنه لم يبق سبيل للمقاومة ، ولم يبق للعرش قوة بسند اليها ، فبادر بمغادرة مدريد مع أسرته وخاصة ، وعبر الحدود إلى فرنسا قبل أن تمتد اليه يد خصومه ؛ ولكنه لم ينزل عن شيء من حقوقه . وفي الحال نودي في أسبانيا بقطر الملكة وقيام الجمهورية ؛ وأقيمت حكومة جمهورية احتياطية برئاسة الكالا زامورا وزير الحرية السابق ورئيس الشعبة المحافظة في الحزب الجمهوري ؛ وأعلن في الوقت نفسه قيام جمهورية في قطلونيه على رأسها الكولونيل ماشا ؛ وفي ٢٨ يونيو اجريت الانتخابات البرلمانية العامة ، فأسفرت كذلك عن أغلبية جمهورية ساحقة ، وتوطدت دعائم الجمهورية الجديدة بتأييد البلاد كلها .

وهكذا انهارت دعائم الملوكية الاسبانية العتيقة ؛ التي هي اقدم الملوكيات الاوربية ، والتي سطعت خلال قرون مديدة ، واخرجت ثباتا حافلا من الملوك العظام - ملوكية فرديناند الخامس وشارل كان وفيليب الثاني ؛ تلك الملوكية التي لبثت تغالب العرب في اسبانيا ثمانية قرون ، والتي انتهت بالقضاء على دولة الاسلام في الاندلس واسترجاع الوطن القديم كله . وهكذا ظفرت الديمقراطية الاسبانية ممثلة الشعب الاسباني باسترداد الحريات الدستورية كاملة شاملة بعد أن كاد يقضى عليها القضاء الاخير . وكان أول ساعدت به الحكومة الجمهورية هو أن تضع لاسبانيا دستورا جديدا لحماية المبادئ الجمهورية والحريات الشعبية ، واضطلع الكورتيز (البرلمان للاسباني) بهذه المهمة منذ ١٤ يولية واتمها في ديسمبر ؛ وكان من اهم المشاكل التي عاجلها مسألة النظام الاتحادي الذي نشأ عن مطالبة قطلونيه بالاستقلال الداخلي ؛ وقد اقر الدستور هذا المبدأ ، واعتبر اسبانيا جمهورية اتحادية واعترف باستقلال قطلونيه الداخلي . وثمة